

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

الأستاذة إبتسام غانم

كلية العلوم الاجتماعية - جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر

مقدمة:

كل مجتمع يحمل تاريخا وثقافة وقيما تحكم الفرد وتسيره، والتي تظهر خصوصا في ممارساته وسلوكياته التي تتجلى في مختلف التفاعلات الاجتماعية التي يتعرض لها. وباعتبار المجتمعات المغاربية مجتمعات محافظة، فإنها تتوفر على العديد من القيم المميزة والتممايزة من حيث درجة الأهمية، ومن بين أهم القيم التي تسعى مجتمعاتنا للحفاظ عليها "البكارة" التي تحظى بمكانة قيمة ترفعها إلى القدسية، فمجتمعاتنا تسعى للحفاظ على عراقتها وأصالتها، إذ رغم مسايرتها التحضر والعصرنة اللذان حدثتا في العالم بأسره، إلا أن المضامين الثقافية المتوارثة عبر الأجيال بقيت المنطلق الرئيسي لسلوكياتها وممارساتها، خاصة فيما يخص بكارة الفتاة قبل الزواج التي كانت ولا زالت تمثل رأس المال الرمزي والاجتماعي للعائلة التي تنتهي إليها والذي يتمثل في الشرف، وكذا تعتبر علامة التربية الصالحة.

فالزواج في مجتمعاتنا هو حدث إجتماعي وعائلي لأن فيه تحترم العادات والتقاليد بتطبيق القواعد والمعايير، فالزواج إذن هو الدليل على أن هذه القيم هي محترمة، حيث تركز هذه القيم أساسا على العذرية التي تسعى العائلات العربية لتهيئة الفتاة لحمايتها منذ طفولتها لحين دخولها مؤسسة الزواج، مما يدل على أن العذرية ليست بمسألة شخصية فقط في مجتمعاتنا وإنما هي عبارة عن ظاهرة اجتماعية لها تأثيراتها على الفتاة وعائلتها والمجتمع.

وتأسيسا لما ذكرت، تحاول الورقة العلمية الراهنة إلقاء الضوء على الواقع الفعلي لهذه الظاهرة بتحليل محتويات التفكير الاجتماعي من معارف وآراء ومعتقدات تحملها المجتمعات المغاربية حول مسألة العذرية، والتي تلعب دورا بارزا في التأثير في أذهان الأفراد وبالتالي توجيه ممارساتهم وسلوكياتهم.

1- أهمية موضوع الدراسة:

الأستاذة ابتسام غانم

تناول موضوع الدراسة مسألة البكارة ذلك أنها ليست مسألة شخصية فقط وإنما هي عبارة عن ظاهرة اجتماعية لها تأثيراتها على الفتاة وعائلتها وعلى المجتمع. كما تحظى مسألة البكارة بأهمية بالغة في المجتمعات المغاربية ترفعها إلى القدسية، حيث تعتبر عذرية الفتاة قبل الزواج بمثابة رأس مال رمزي واجتماعي تتم عن طريقه عملية إعادة إنتاج للأسر.

وبما أن المجرى الاجتماعي لمسألة البكارة يتأثر إلى حد كبير بالمضمون الثقافي للمجتمع والذي يتبناه الأفراد في محتويات تفكيرهم وآرائهم ومعتقداتهم، ويترجمونه في مواقفهم وسلوكياتهم، فإن موضوع العذرية وتبعاته يعكس هذا المضمون الثقافي الذي ارتأيت أن أعرف عليه وعن مدى تأثيره بمختلف النماذج الثقافية الغربية التي أسهمت في ترويج أفكار ليبرالية تعكس صورة أكثر تحررا للمرأة، حيث أعطتها الحق في التصرف في جسدها كما تشاء، خصوصا مع التحولات البنيوية التي حدثت على وضعية الفتاة في المجتمعات العربية عموما والمجتمعات المغاربية خصوصا.

من هنا تطور الاهتمام بدراسة ظاهرة العذرية، وهذا الاهتمام، هو جزء لا يتجزأ من الواقع الذي نعيشه، وعليه فإن الرصد النفسي الاجتماعي لواقع هذه الظاهرة حتى وإن انطلق من مجرد الرغبة في تسجيل صور هذا الواقع من شأنه أن يساعد على فهم الواقع الاجتماعي لمسألة العذرية بكل أبعادها.

وعلى هذا الأساس، تستمد الدراسة الراهنة أهميتها من عدة مبررات ذاتية وموضوعية مجتمعية أجملها في العناصر التالية:

تجسد مسألة العذرية والوقوف على مدلولها وأبعادها، الواقع النفسي الاجتماعي بأبعاده ومميزاته وخلفياته التاريخية والثقافية، بمعنى فهم التكوين النفسي والاجتماعي لأفراده.

تشكل إشكالية العذرية موضوعا هاما، باعتبارها تبين لنا مدى أهمية هذه المسألة في حياة الفتاة خصوصا، وعائلتها والمجتمع عموما، وبالتالي يساعدنا هذا على التعرف على الجانب الثقافي ومدى تأثير القيم والتقاليد والعادات في سلوكيات وتصورات الفتاة لهذه المسألة.

تعد دراسة مسألة العذرية امتدادا لاهتمامات ذاتية، ذلك لما هو ملاحظ من أن المرأة تتعرض لعمليات تطبيع اجتماعي تجعل منها جسدا على حساب إنسانيتها.

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

تمثل هذه الدراسة استجابة لواقع عرف الكثير من التحولات البنيوية خصوصا فيما يتعلق بوضعية المرأة التي شمل دورها جميع الميادين، مع ما هو ملاحظ في الواقع المعاش من تأثير للمرأة بمختلف النماذج الثقافية الغربية. محاولة اختراق حدود المسكوت عنه، بإخضاعه للدراسة النفسية الاجتماعية التي تكشف عن خفاياه.

2- مفهوم البكارة:

يعتبر موضوع البكارة من المواضيع والقضايا التي حظيت باهتمام ملاحظ من طرف علماء النفس وعلماء الاجتماع وتخصصات أخرى، إذا فهذا المفهوم أخذ من أطر متباينة، مما أدى إلى تعدد وتمايز تعريفاته كل حسب تخصصه، وفي هذا الإطار سأقوم بعرض البعض من هذه التعريفات.

أ- تعريف فاطمة المرنيسي: "العذرية مرتبطة بالفتاة العذراء التي تتمتع بغشاء بكارة يختم مهبلها الذي لم يمسه رجل من قبل، كما أنها ترى أن العذرية في مفهومها هي مسألة تخص الرجال، وتلعب فيها النساء دور الوسيطات الصامتات، وعلى شاكلة الشرف تعتبر العذرية مظهرا لهاجس ذكوري في المجتمعات التي يلعب فيها غياب العدالة وقلة الموارد والإخضاع المهيمن لفئة من قبل أخرى، على حرمان المجتمع المحلي ككل من القوة الإنسانية الحقيقية الوحيدة وهي الثقة بالنفس". (إيلكاركان، 2004، ص241)

إذا فهذا التعريف يبين لنا أن الباحثة أولت اعتبارا لغشاء البكارة الذي اعتبرته رمزا لعذرية الفتاة كما وضحت البعد النفسي وكذا الاجتماعي للعذرية والذي يتباين من مجتمع لآخر.

ب- تعريف عبد المنعم الحفني: "يقصد بالعذرية العذرة وعلامتها في البنت العذراء غير المدخول بها، غشاء البكارة، هذا الأخير الذي يغشى فتحة الفرج الظاهرة، يكاد يسدها ويتخذ أشكالا، فقد يكون كالهلال أو كالحلقة أو كالغريبال، فإذا تزوجت البنت أو وقع عليها اغتصاب أو أصابها أذى ينال عذريتها، فإن غشاء البكارة يتهتك أو يتمزق، وأحيانا برغم الدخول بها فإن الغشاء يبقى سليما حتى تلد فيتمزق وقت الولادة، كما أنه يبين أن العذرية إرتبط وجودها في أنثى الإنسان بالعفة وكذا بالشرف". (الحفني، 1992، ص ص428-429)

الباحث أولى أهمية لغشاء البكارة من الناحية التشريعية، كما وضع أن غشاء البكارة الذي يعتبر رمز العذرية يعتبر علامة لشرف وعفة الفتاة.

الأستاذة إيتسام غانم

ج- تعريف نادية رمسيس فرح: "إن أهم معيار للعذرية والذي يرتبط بشرف الأسرة، هي محافظة الفتاة على غشاء البكارة الذي يقاس وجوده في العادة بزول بعض الدم ليلة الزفاف". (رمسيس فرح، 1992، ص170)

هذا التعريف يبين لنا أن أهم معيار تقاس به العذرية والذي يرمز لشرف العائلة هو غشاء البكارة الذي ينزل منه الدم ليلة الدخلة.

د- تعريف نوال السعداوي: "العذرية والشرف مفهومان متلازمان، حيث تقول أن مفهوم الشرف مرتبط بما يسمى العرض أو عذرية الفتاة قبل أن تتزوج، وإخلاصها لزوجها وطاعتها له بعد الزواج، فإذا ما فقدت البنت عذريتها لأي

سبب وإن كان إغتصاباً رغم أنفها، فإنها تصبح فتاة بغير عذرية أو بغير شرف، وإن شرف الأسرة وعرضها أصبحا في التراب، وعلى رجال الأسرة أن يستردوا شرفهم الضائع، إما بقتل الفتاة أو بكتمان الأمر الذي يسمى فضيحة، وتزويجها في السر من الرجل الذي اعتدى عليها أو أي رجل آخر يتطوع للزواج منها، ويعتبر هذا الرجل المتطوع شهماً مضحياً بنفسه من أجل شرف الأسرة، وكأنه يتطوع للموت في الحرب

مثلاً أو في كارثة وليس أنه يقبل على الزواج من فتاة". (السعداوي، 1982، أ، ص59)

الباحثة أعطت العذرية أهمية اجتماعية خاصة لارتباطها بالشرف والعرض، مع توضيحها للمسؤولية التي ترجع للفتاة فاقدة العذرية، رغم هذا فقدان المتعارض مع إرادتها ورغبتها.

هـ- تعريف فرانسواز كوشار Françoise Couchard:

"العذرية والمتمثلة في غشاء البكارة الذي يظهر عند الفتاة العذراء كفضاء متعدد الإنقطاعات ما بين الداخل (الجسدي) والخارج (الاجتماعي) منطقة تعتبر بمثابة واجهة ما بين التشريعي والاجتماعي حيث تضمن الفتاة فخرها وشرفها الشخصي الذي يضمن لها صورة إيجابية عن ذاتها وبالتالي مكانة داخلية، أما فيما يخص الرجل فإن هذه المكانة تصبح خارجية لأنها مرتبطة بالمجتمع ككل، وتظهر خاصة عند فض بكارة الفتاة في الزواج وبالتالي يضمن الرجل شرفه الاجتماعي". (Couchard, 2004, P303)

إن هذا التعريف ركز على عدة أبعاد خاصة بمفهوم العذرية والتي تضمنت البعد النفسي الذي يكمن في ضمان الفتاة صورة إيجابية عن ذاتها، وبعد اجتماعي يضمن الشرف للفتاة وأسرتها خصوصاً في الجماعة الاجتماعية التي يعيشون فيها، وبعد تشريعي ذلك أن عذرية الفتاة مرتبطة باحتواء جسدها على غشاء البكارة.

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

و- تعريف لطفي الشربيني: "العذرية هو وصف يطلق على العذراء، ووصف العذراء يطلق أيضا على السيدة مريم، والعذرية تعني البكارة، وهي وصف لمن لم يسبق له الاتصال الجنسي، وتعبر عن العفة والطهارة". (الشربيني، 2001، ص 401).

هذا التعريف يتناول البعد الإستعمالي التي يتمثل في الاتصال الجنسي، والبعد الأخلاقي الذي يتمثل في العفة والطهارة.

ز- تعريف سمية نعمان جسوس: "العذرية تتمثل في المقام الأول في غشاء المهبل، أكثر مما هي حالة من الطهر الداخلي. وصور العذرية يعني صون هذه القطعة الجلدية التي ينتظر الجميع أن تسيل دما لحظة الإفتضاض. وأما الصورة التي تجري بها تلك اللحظة المشهودة، فمن المؤكد أنها تؤثر على حياة النساء الجنسية برمتها". (نعمان جسوس، 2003، ص 175).

يتضح لنا من التعريفات النفسية الاجتماعية الموضحة أن مفهوم العذرية يتباين من باحث لآخر بنسب متفاوتة، ذلك أن العذرية تتباين أيضا من مجتمع لآخر كل حسب خلفياته التاريخية والثقافية، فهناك مجتمعات ترى في العذرية شيئا مدنسا لا تحتفل به، بل وتفضل المرأة التي فضت بكارتها على المرأة التي لم تفرض، ومجتمعات أخرى (المجتمعات العربية) ترى في العذرية شيئا مقدسا ذا أهمية بالغة تحتفل بفضه ليلة الزفاف، كما يصل إلى حد القتل من أجله.

3- تحليل نفسي-اجتماعي لظاهرة البكارة في المجتمعات المغاربية:

تحظى البكارة في المجتمع المغربي بأهمية كبيرة، حيث تعتبر بمثابة القيد الذي يحصن العضو التناسلي للمرأة، والمتجذر في أذهان أفراد المجتمع نساء ورجالا، يتم فيه تجسيد الإيديولوجيات المبنية في لاشعورنا والمشاركة بين سائر أفراد مجتمعنا، حيث تنم عن رغبة المجتمع في إدانة الجسد الأنثوي وضبطه اجتماعيا، وذلك بكبح نزواته الطبيعية وكبت رغباته وتقنينها إلى أن يحين تصريحها داخل كيان اجتماعي ذا شرعية يسمى بمؤسسة الزواج.

3-2- ظاهرة البكارة في المجتمعات المغاربية كتصور:

قبل الغوص في الحديث عن موضوع البكارة في المجتمعات المغاربية خصوصا، يجب أن نتوقف على مقارنة مهمة تدعى بـ "المقاربة الجندرية"، هذه المقاربة التي اهتمت بالإشارة إلى مفهومين أساسيين وهما التذكير والتأنيت أو ما يسمى بالجندر والذي يقصد به "النوع الاجتماعي"، وهو أساسا مقولة ثقافية وسياسية تختلف عن الجنس باعتباره معطى بيولوجيا، وتعني الأدوار والاختلافات التي تقررهما وتبينها المجتمعات بين الرجل

والمرأة، مع العلم أن هذا النوع الاجتماعي يختلف من مجتمع إلى آخر. حيث يرتبطان (الرجل والمرأة) بالهوية الجندرية الممنوحة لهما من طرف المجتمع، والخارجة طبعاً عن نطاق الهوية البيولوجية، إذا فالاختلاف بين الجنسين ذكر وأنثى بات يضع العوامل الاجتماعية في المقام الأول، في حين يضع العوامل والعناصر البيولوجية الوراثية في المرتبة الأخيرة. (بن سلامة وآخرون، 2005، ص13).

وبالتالي فالمرأة أصبحت إنتاجاً للمجتمع الذي تعيش فيه، فإن صار بالإمكان إخفاء الفوارق البيولوجية ومواراتها، وبعبارة أخرى، فإن مسألة الهوية وعدم المساواة بين النساء والرجال يرجعان على وجه الإطلاق إلى التراتبية أو إلى التصنيف المجتمعي، أما الفرق الناشئ من الطبيعة فبدا مستبعداً أو مقللاً من شأنه. (بن سلامة وآخرون، 2005، ص109).

وبذلك ينبغي إثبات "الأنثوية" من حيث هي صفة مكتسبة، والعمل على ترسيخها في الجسم الأنثوي وبالتالي يصبح جنس الأنثى مرتبطاً بالتكوين الاجتماعي الثقافي وليس الماهوية البيولوجية، مع العلم أن ضروب تنوع صفات الجنس تختلف مع علاقته بالخلفيات المتبناة من طرف المجتمع، حيث يصبح جسم المرأة -وسيطاً- تتأسس به "الأنثوية". (بن سلامة وآخرون، 2005، ص133).

إذا فالجوهر البيولوجي يتأثر بالنظام المجتمعي الأخلاقي الخاص بكل مجتمع وذلك هو السبب في أن الجنس انتهى إلى أن يتورط في الممارسات المجتمعية الثقافية، مما أدى إلى تقنين وضبط الأجسام الأنثوية.

ف"المقاربة الجندرية" تذهب بالجسم الأنثوي الخاص بالمرأة إلى هوية خاصة بها تتمثل هذه الهوية الاجتماعية في مختلف الأدوار والممارسات والتصرفات التي تتبناها الأنثى وبالتالي تميزها عن الذكر لأن بكاره الأنثى تدخل في سياق الهوية الاجتماعية للأنثى والتي تتباين حسب كل مجتمع.

بالإضافة إلى ما هو معروف عند العرب أن إشكالية الجنس تكتسي أهمية خاصة، لأن الجنس موضوع مرتبط بالعرض والشرف، خصوصاً لارتباط هاذين المفهومين بالمرأة التي لا زالت حتى اليوم تحت أسر العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية، التي تتجسد فعلياً في السرية والخوف والحذر الشديد من الاعتراف بالجنس والحديث عنه، وبالتالي فإن مصادرة الجنس ليست وليدة الحاضر الراهن، بل تعود في جذورها إلى الحضارات الذكورية القديمة وإلى النزعة الأبوية -البطيركية- التي تبنتها "المقاربة الأبوية البطيركية" والتي شكلت نظاماً أخلاقياً أضفى الشرعية على سلطة الذكر، بعد أن

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

تمكن من ضبط حركية جسد المرأة، وتقنين فعلها الجنسي، وبالتالي تحديد حركتها ومصادرة حرمتها، وهكذا نشأت منظومة من القيم والأعراف الاجتماعية والأخلاقية التي تعكس المباحات والمحرمات في المؤسسة الذكورية. (الحيدري، 2003، ص274).

إذا فنشوء المجتمع الأبوي ذو النزعة الأبوية البطيريركية التي تظهر في سيطرة الأب على العائلة، وما يتميز به هذا المفهوم الأبوي من التجرد والجمود والتناقضات الداخلية التي تميزه وتمزقه وتستنزف طاقاته المعنوية، وتدفع أفرادها إلى الشعور بالتمزق، ما يؤدي إلى تقييم دوني للذات، أدى إلى اعتباره مجتمعا أبويا تقليديا راكدا عن مواكبة التقدم والتحديث، خصوصا أنه قائم على الأسرة الأبوية التي بدورها تقوم على فرض زوج واحد على المرأة وتعدد الزوجات للرجل، حيث ما كان لهذا النظام الأبوي أن يقوم أو يستمر إلا بفرض قيود وعمليات صارمة تقلل من طبيعة المرأة الجنسية حتى يمكنها الخضوع لزوجها الواحد، وهذا هو السبب في عدااء المجتمع الشديد لرغبة المرأة الجنسية حتى يمكنها الخضوع لزوجها الواحد، ومقاومته المستمرة لها بأبشع الوسائل، لأن المجتمعات تعي أن أي تهاون من جانبها في هذا المجال يعني خروج المرأة من قفص الزواج الأحادي الحديدي والاتصال برجل آخر، ومعنى ذلك اختلاط النسب واختلاط الأطفال الخاصين بالزوج الشرعي بأطفال رجال غرباء، ومعنى ذلك انهيار الأسرة الأبوية القائمة على اسم الأب فقط. (السعداوي، 1982، ص73).

كما أن النساء في هذا النظام ينظر إليهن في بنية سوق السلع الرمزية، ومبدأا دونية واستعباد المرأة، الذي يقره هذا النظام، إلى درجة جعله مبدأ تقسيم الكون كله، ليس سوى اللا-تساوق الجوهرى، لا تساوق الذات والموضوع، الفاعل والأداة، الذي يقام بين الرجل والمرأة على أرض التبادلات الرمزية، أرض علاقات إنتاج وإعادة إنتاج رأس المال الرمزي، التي يكون شكلها المحوري هو "سوق الزواج"، والتي تكمن في أساس كل النظام الاجتماعي، فلا يمكن للنساء الظهور فيها إلا بوصفهن أشياء، أو بالأحرى بوصفهن رموزا يتأسس معناه خارجهن وتكون وظيفتها هي الإسهام في إدامة أو في زيادة رأس المال الرمزي الذي يحوزه الرجل، إنها حقيقة المكانة الممنوحة للنساء. (بورديو، 2001، ص44).

وكما تقر الباحثة "إيفلين عقاد" أنه: " في مجتمعاتنا العربية كل شخص يحاول تحت مظلة النظام الراهن الحصول على المكاسب والسلع المادية والأرض، لا لكي يستمتع بها، ولا نتيجة الحاجة إليها، بل من أجل توسيع ملكيته وسلطته، وعلى نحو مشابه، لا تنبني العلاقات الجنسية على المتعة أو الرقة أو الحب، بل على الإنجاب، وعلى الحفاظ على عذرية البنت أو ما يسمى بشرف العائلة، وتقييد المرأة والسيطرة عليها لزيادة مكانة

الأستاذة إيتسام غانم

واعتبار الذكر، وفي هذا السياق نلاحظ أن عذرية المرأة تعتبر من أملاك الرجال المحيطين بها، أولا والدها، ثم تقدم كهدية لزوجها مقابل المهر الذي يدفعه، وبالتالي تصبح عذرية المرأة سلعة ينبغي حمايتها بواسطة شبكة أفراد العائلة والمجتمع المحلي". (إيلكاركان، 2004، ص79). حيث تتم حماية المرأة خارجيا من خلال القواعد السلوكية والممارسات، وداخليا من خلال الإبقاء على غشاء بكارتها سليما. لذلك نلاحظ أن الرجال يقاومون بمشقة كبيرة حتى يحافظوا على وتيرة واستمرارية اسم العائلة خصوصا إذا أرادت الفتاة تعريض عائلتها للخطر.

حيث يقول "بيير بورديو" أن تفسير الأسبقية الممنوحة للذكورة على حساب الأنوثة في التصنيفات الثقافية في منطق اقتصاد التبادلات الرمزية، وبشكل أدق في البناء الاجتماعي لعلاقات القرابة والزواج التي تخصص للنساء مكانتهن الاجتماعية كأشياء للتبادل يجري تعريفها طبقا للمصالح الذكورية، إلى "أدوات رمزية" للسياسة الذكورية، إذ بكونهن مندورات للتبادل كعلامات إئتمانية، وبذلك يؤسسن علاقات بين الرجال، فإنهن يختزلن إلى منزلة أدوات لإنتاج أو لإعادة إنتاج "رأس المال الرمزي والاجتماعي"، حيث يقول "آن-ماري داردينيا" في هذا الصدد أيضا: "أن رأس المال الرمزي والاجتماعي يجعل من الجسد الأنثوي، حرفيا موضوعا قابلا للتقييم والتبادل، يتم تبادله بين الرجال بنفس الصفة التي يتم بها تبادل النقود". (بورديو، 2001، ص45).

وبالتالي فإن اكتساب رأس المال الرمزي ورأس المال الاجتماعي يشكل الشكل الوحيد تقريبا للتراكم الممكن الذي يمكن فيه أن تكون النساء قيما يجب الحفاظ عليها في مأمن من الانتهاك والشك، ويمكنها باستثمارهن في التبادلات أن تنتج تحالفات، أي رأس مال اجتماعي، وحلفاء ذوي مكانة، أي رأس مال رمزي، وبقدر ما تكون قيمة هذه التحالفات، ومن ثم الربح الرمزي الذي يمكنها أن تجلبه، متوقفة في جانب منها على القيمة الرمزية للنساء المتحالفات للتبادل أي على سمعتهن و خصوصا على عفتهن والمتمثلة في "العذرية" المؤسسة كمعيار صناعي للسمعة الذكورية، ومن ثم لرأس المال الرمزي للسلالة بأسرها وهذا ما يبرر التغطرس الذكوري للإخوة أو الآباء في الحفاظ على هذا الشرف. (بورديو، 2001، ص46)

كذلك ترى "فاطمة المرنيسي" أن عذرية الفتاة خلال مراسيم الزواج يجب أن تتصف "بالاحتشام العذري والبراءة البطيركية"، لأنها تعتبر من أنفس "سلع" الرجال في منطقة البحر المتوسط، عذراء بغشاء بكارة يختم مهبلها الذي لم يمسه رجل من قبل، وبالتالي فالعذرية في المجتمعات العربية تعتبر مسألة تخص الرجال، وتلعب فيها النساء دور

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

الوسيطات الصامتات وعلى شاكلة الشرف، تعتبر العذرية مظهرا لهاجس ذكوري محض في المجتمعات التي يغيب فيها العدل، وقلة الموارد، والإخضاع المهيمن لفئة من قبل أخرى، على حرمان المجتمع المحلي ككل من القوة الإنسانية الحقيقية الوحيدة: الثقة بالنفس، فالرجل لا يضمن مكانته وهيبته واعتباره من خلال إخضاع الطبيعة، أو قهر الجبال والأنهار، ولكن بواسطة السيطرة على حركة النساء اللواتي تربطه بهن صلات الدم أو الزواج، ومنعهن من إقامة أي اتصال بالذكور الغرباء. (إيلكاركان، 2004، ص241)

كما ترى "المرنيسي" أيضا بأن الذكور في النظام البطريكي يعانون من مأساة كبرى ذلك أن صورة الذكر العذري الذي يرتجف نتيجة نقائه وبراءته في ليلة الدخلة تعتبر بالنسبة للعربي قمة السخف لكن ذلك هو ما يرغب بفرضه على المرأة العربية، لذلك فالذكر البطريكي مكانته تعتمد على تناقضات شيزوفرانية (تناقضات شيزوفرانية: مصطلح ربطته الباحثة بالجانب الاجتماعي، حيث قصدت به تناقض فصامي على درجة من الكلية والشمولية بحيث لا يستطيع الأفراد من الرجال ولا مجتمعات برمتها قبوله كأمر صحيح دون تدمير ذاتهم) لاعتقالية، ومنوطة بكائن يعرفه منذ البداية كعدو: المرأة وصمتها الخفي، المرأة التي تغمره ببحر من الأكاذيب، وتوقعه في شرك المكائد والمناورات الدينية. (إيلكاركان، 2004، ص245)

ففي تصورنا يحول الرجال أنفسهم إلى قذارة لتلويث شريكاتهم، ولنفس السبب يحولون الفعل الجنسي إلى فعل تدميري وتحقيري، فالعذراء التي فقدت عذريتها تصبح امرأة منحطة، لكل الرجل، مثل طائر العنقاء الخرافي، يبرز من بين الركام والخراب أكثر نقاء ورجولة وأهلا للاحترام.

وترى "نوال السعداوي" أن تتبع جسد المرأة في مجتمعاتنا والحديث عنه يتم بشكل إثارة للمفاتن، ويزاح موضوع الجسد الأنثوي ضمن هامش الجنس فقط، إذا فالمرأة وخصوصا جسدها كان أكثر حظا من نفسها وعقلها، وأنه لم يتعرض لذلك الإنكار الذي تعرضا له، إلا أن المجتمع لم يترك جسد المرأة على حالته الطبيعية، فهذا التصور الذي فرضته الظروف الاجتماعية منذ تاريخ بعيد فرض أن تكون المرأة جسدا فحسب وساعد على ذلك اندثار نفسها وعقلها في طي النسيان، وجهل الناس بمرور الزمن أن المرأة يمكن أن تكون لها نفس وعقل كما للرجل. (السعداوي، 1982، ص17)

إذا فالمرأة عبارة عن بناء اجتماعي مناقض لبناء جسد الرجل، وذلك بهدف تحويل المرأة إلى كائن سلبي يستخدم جسده من أجل إرضاء الآخر، فالمرأة مطالبة في كل الحالات

بتنفيذ وصية كانت القائلة "عليها أن تتخلى عن التفكير والمعارف المجردة النافعة، لأنها جافة، وتدع ذلك للرجل لأن البحث الجاد والتأمل المكتسب يقضيان على الميزات الخاصة لديها، وسيضعفان من الجاذبية الشديدة التي تمارسها على الآخر". (المرنيسي، د س ن، ص 11)

وبالتالي فالمجتمع يحمل الفتاة أعباء العفة والشرف، لأنها تمتلك العذرية، ويؤمن العفة في الجنس كقيمة خلقية مرتبطة بالمرأة وحدها دون الرجل، وهذا ما يدل على أن العفة ليست قيمة كما يراها المجتمع وإنما قانون فرضه النظام الاجتماعي القائم، والذي ينص على ضرورة أن تحافظ المرأة على عذريتها قبل دخولها في مؤسسة الزواج ذلك باعتبار هذه العذرية رأس مال رمزي واجتماعي يضمن الكسب المادي الذي تحققه عذرية المرأة المصانة قبل دخولها في الزواج، وكذا الكسب المعنوي الذي تحققه هذه العذرية من خلال ضمانها للفخر والشرف وضمان احترام العائلة التي تنتهي إليها.

كذلك فـ "بيير بورديو" يرى أن العالم الاجتماعي يبين الأجساد بوصفها واقعا متجنسا وبوصفها مستودعا لمبادئ الرؤية والتقسيمات الجنسية، ويتم هذا البناء من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تعزز لمبادئ التفرقة بين الجنسين من خلال الطقوس المبررة بالفروق البيولوجية والفيزيولوجية الطبيعية، رغم أن هذه الفروق في حد ذاتها هي نتاج بناء اجتماعي يسجل ويقرر رمزيا خصائص طبيعية معينة لا تقبل النقاش، وهكذا فإنه يسهم في آليات أخرى أهمها إدراك علاقة ضمن نسق من العلاقات المتناظرة والمترابطة في تحويل ما هو تعسفي في الناموس الاجتماعي إلى ضرورة للطبيعة. (بورديو، 2001، ص ص 19-20)

وانطلاقا من الإستدماج والاستبطان الذهني لهذا البناء يتم التعامل مع المرأة على أنها الجنس الأدنى (الأنثى) وبالتالي صاحبة المكانة الأدنى في الترتيب، فهي دوما الطرف الخاضع لسلطة الجنس الأعلى (الذكر)، فهي لا تستطيع إلا أن تسلك كما هو متوقع منها (أنثى) وإن ولدت إنسانا فإنه سيتم تعليمها كيف ستصبح أنثى، كما يتعلم الولد كيف يكون ذكرا، حيث يقول "بيير بورديو" في هذا الصدد: "يجرى نقش المبادئ المتعارضة للهوية الذكورية والهوية الأنثوية على هيئة طرق دائمة للتصرف في سلوك الجسد"، حيث ربط عملية التأهيل الاجتماعي للمرأة مع جسدها في قوله: "يميل كل عمل التأهيل الاجتماعي إلى فرض حدود على المرأة تتعلق جميعا بالجسد الذي يعرف هكذا على أنه مقدس حرام ويجب أن تنقش هذه الحدود في استعداداتها الجسمية". (بورديو، 2001، ص 23)

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

إذا فحسب "المقاربة النفسية الإجتماعية" المرأة والرجل يستبطنان سلوكياتهما نتيجة المجتمع الذي يعيشان فيه وذلك عن طريق عملية "التنشئة الإجتماعية" وهذا الاستبطان هو غير واعي.

كما ركزت الباحثة "راضية طوالي" على الانعكاس الذي تخلفه ولادة الأنثى في المجتمعات المغاربية عموما والعائلة الجزائرية خصوصا والتي تضم بدورها مجموعة من الأفراد يعيشون في مكان واحد وتحت سلطة قائد وحيد يسمى بالأب أو ينوب عنه في ذلك الأخ الأكبر حيث تقول أنه في البنية المجتمعية التقليدية ولادة الأنثى هي غير مستحبة مقارنة بولادة الذكر خصوصا إذا كان هذا المولود هو الأول، إذ ترى في ذلك أن ولادة الأنثى تشكل موقفا خاصا له انعكاسات على النرجسية الأبوية، ولأن هذه النرجسية تفضل جنس الذكر على الأنثى، ذلك أن في ولادة الذكر منفعة حسب المعتقدات التقليدية، إذ يصور في المجتمع التقليدي كـ "قوة" تستخدم للرفع من قدرات الإنتاج الخاصة بالعائلة، أما الفتاة فليس لها منفعة اجتماعية أو اقتصادية.

(Toualbi, 1984, P51)

إذا فهذه هي النظرة التقليدية لولادة البنت، لكن رغم تحور هذه النظرة قليلا في البنية المجتمعية المعاصرة، الذي أضى العلم والوعي راسما لتصوراتها التقليدية وواضعا لها حدودا إلا أن ما هو ملاحظ هو استمرار تأثير هذه النرجسية الأبوية ولو قليلا حيث تختلف درجتها من فرد لآخر.

أما فيما يخص وضعية البنت في هذه البنية فـ "مصطفى بوتفنوش" يرى أن البنت في العائلة المغاربية تكون من الناحية النفسية والاجتماعية حرة مدنيا ومطبعة لأبها إذ تعدى دورها بقوة إلى ميادين أخرى وذلك بخروجها من قوقعة الحياة التقليدية التي فرضت عليها إلى الانفتاح على الحياة الاجتماعية التي برزت فيها بشكل يكاد يفوق دور الرجل الذي أصبح يتنافس معها في مجال العمل، العلم ... إلخ. إذ أنها لم ترفض مكانها الطبيعي (المنزل) بل أرادت إضافة إلى دورها الفعال فيه أن تشارك وتندمج في الحياة العملية. (بوتفنوش، 1984، ص259)، أما فيما يخص تربية البنت فالأم تعتبر في العائلة التقليدية هي الموجه وكذا الذي يختص بتربية الأنثى فيما يخص الغاية المرجوة والمتمثلة في "العذرية". حيث ترجع في الغالب مسؤولية فقدان عذرية الفتاة قبل دخولها مؤسسة الزواج والذي يوجي بعدم الفخر والعار وفقدان الشرف، إلى ذنب الأم وبالتالي لها مسؤولية كبيرة في هذا الحدث، إذا فالعلاقة أم- بنت يتخللها قلق كبير، أما بالنسبة للعلاقة أب- بنت فالأب عليه مسؤولية حراسة تربية ابنته حيث تصبح هذه

الحراسة نوعية إلى حد ما يجب الحفاظ عليها لضمان الصلابة (الشرف). وبالتالي فالغاية التربوية من تربية البنت تتمثل أساسا لتأهيلها لتكون زوجة نموذجية، ففي الثقافة التقليدية وعندما تأتي مرحلة الزواج ويتجلى زواج البنت، حيث صباح ليلة الدخلة يتم التأكد من عذرية الفتاة وذلك برؤية مؤشرات فض البكارة والتي تعكسها ثقافتنا التقليدية في قطرات من الدم ترى عموما في منديل أبيض، يتشكل اتجاه جماعي حول الفتاة العذراء الذي يتمحور حول "رداء الحشمة" le voile de la honte والتي تعكس تربية الفتاة على الحشمة والحياء وبالتالي ضمنت الفتاة شرفها وشرف عائلتها وكذا احترامها من طرف الزوج وعائلته اللذان ينتظران بشوق الاختيار الموافق لولدهم. (Toualbi, 1984, P68)

إذا فليدة الدخلة حسب "راضية طوالي" هي عبارة عن مناسبة لتقييم جماعي وعام لنوعية التربية التي استبطنتها الفتاة في عائلتها، والتي تعكس عملا تربويا طويلا داخل الجماعة الاجتماعية، يعكسه الجانب الفيزيولوجي المتمثل في دم فض غشاء البكارة ليلة الدخلة.

فالبنية التقليدية كان الهدف منها هو فكرة المحافظة على النقاء الأخلاقي والجسدي للمرأة، كما أن نظام القيم الأخلاقي والديني أو الاجتماعي والعائلي كان قطعيا حول دمج المرأة ضمن الجماعة الاجتماعية-المنزلية، وكان عدم التساهل هذا أكثر قسوة من عدم الاحترام للكمال الجسدي والأخلاقي للمرأة بإمكانه أن يسبب خطرا حقيقيا يتمثل في حدوث قطيعة داخل الجماعة العائلية أو ببساطة يهدد بالحط في قيمة الجماعة العائلية من طرف الجماعة الاجتماعية المتواجدة، وبالتالي فضرورة العفاف الجسدي للمرأة وخصوصا عذريتها تعتبر بمثابة شرط لتلاحم الجماعة العائلية بالمحافظة على شرفها. (بوتفنوشت، 1984، ص274)

2-3- ظاهرة البكارة في المجتمعات المغربية كحقيقة:

تعتبر البكارة في مجتمعاتنا المغربية شيئا مقدسا، وبما أن المرأة هي التي تحمل وصف العذرية فهي المعنية الأولى بهذه المسألة، إذ رغم تغير وضعها من البنية التقليدية القديمة أين كانت تحت سلطة أبيها ثم زوجها جاهلة لحقوقها، إلى البنية المعاصرة، حيث أصبح لها دور شمل جميع الميادين، وذلك بخروجها من قوقعة الحياة التقليدية إلى الانفتاح على الحياة الاجتماعية، لكن هذه التحولات البنيوية التي آلت إليها حياة المرأة، كانت لها حدود رسمت في إطار ما نصه العرف الاجتماعي لمجتمع رأسماله الرمزي والاجتماعي هو الشرف الذي يقتضي أن تحافظ الفتاة فيه على عذريتها بعدم وقوعها

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

في "الخطأ" وضمان استبطانها للقيم الطاهرة، إذ ينتظر من الفتاة العزباء البقاء طاهرة عفيفة لم يلمسها رجل حتى ليلة الزفاف، وحين تكون العروس عذراء فإن ذلك يشير بدلالته إلى عفافها ونقاها وإخلاصها لعائلتها وعلى أنها جديرة بالاحترام، لذلك فعذرية المرأة قبل الدخول في مؤسسة الزواج ليست مجرد خيار فردي ولكنه شأن من شؤون العائلة، ومنه فالعذرية ليست مسألة شخصية فقط وإنما هي ظاهرة اجتماعية، فالقيمة التي تكتسبها العذرية في مجتمعاتنا المغاربية ترقى إلى الطهارة النموذجية التي تستجيب للأخلاق الجنسية التي تقوم على العفاف والحلال وتجنب الحرام، ذلك مرده إلى أهمية الجسد الأنثوي الذي يستجيب لمفهوم الطهارة والنقاء.

إن المجتمعات العربية والمغاربية هي مجتمعات محافظة، لا تبيع ثقافتها اختلاط الذكور بالإناث ابتداء من فترة النضوج الجنسي (البلوغ)، وحتى لو كان هناك نوع من الاختلاط فإننا لا ننسى أثر ما ترسب في أعماق الفتاة في الطفولة من مواقف ذهنية ونفسية عن الجنس وكذا عن كل ما يتعلق بهذا الموضوع خصوصا العذرية، فالثقافة السائدة ترى أن عدم معرفة أمور الجنس هو شيء مستحب ذلك ضمان للحفاظ على عفة البنات وعذريتهن، كذلك بالنسبة لموضوع العذرية، فبالرغم من قيمته وأهميته في مجتمعاتنا إلا أنه أعتبر من المواضيع المحرمة (طابو) لارتباطه بالقضايا الجنسية التي ظلت محرمة اجتماعيا، ومنطقة شائكة، لا يشجع الآباء بناتهم على معرفة ماهيتها، لاعتقادهم أن بناتهم سوف تخترقن القواعد والحدود المتعلقة بهذه القضايا، ولذلك فهم يرون بأنه موضوع يجب التحفظ عليه وعدم التطرق له. (الصواف والجبلي، 2001، ص78)، إذا فثقافتنا ترى أن موضوع الجنس وكل ما يتعلق به كالعذرية هو موضوع حساس جدا ولا يجب التطرق إليه وهذا ما له انعكاسات سلبية حيث من غير المستغرب أن تصل البنت إلى مرحلة المراهقة والنضوج الجنسي وهي لا تفقه عن الجنس وماهيته شيئا، وفي بعض الأحيان لا تعرف الفتاة عن الوظيفة الجنسية الزوجية إلا عند وقت الزواج. (الصواف والجبلي، 2001، ص82)

إذا فالمجتمعات العربية تضع إطارا خاصا بتربية الفتاة على مختلف الخلفيات التي تتبناها وهذه القيم هي فوق زمانية وفوق مكانية.

إن القيمة المقدمة للعذرية في مجتمعاتنا، توجه كل الجهود نحو حماية هذه العذرية عن طريق مراقبة سلوكيات النساء، لذلك فإن وجود رمز العذرية المادي والمحسوس والمتمثل في غشاء البكارة ساهم في تسهيل هذه المراقبة لضمان عفافهن ولأن هذه

البكارة تميز ترقى هؤلاء الفتيات إلى الطهارة النموذجية وإلى التربية الصالحة التي قوامها النماذج التربوية المصرح بها عن طريق قوانين العرف الاجتماعي.

إن القيمة الإستعمالية للعذرية تظهر خصوصا في "سوق الزواج" هذا المفهوم الذي اقترحه "بيير بورديو"، وهو ينطلق من فكرة مؤداها أنه كلما كانت الفتاة صغيرة وعذراء أي لم يسبق لها الزواج، كلما كانت قيمتها أكثر والمتمثلة في فرص الزواج والمهر، لذلك فالعذرية هي بمثابة قيمة رمزية تجارية يحرص عليها الآباء ككنز معرض للضياع في أي وقت.

إن الفتيات في العائلة العربية يعتبرن كأدوات رمزية، إذ بكونهن منذورات للتبادل، فإنهن يختزلن إلى منزلة أدوات لإنتاج أو إعادة إنتاج رأس المال الرمزي والاجتماعي المتمثل في الشرف الذي يسعى أفراد العائلة نساء ورجالا لاكتسابه، وبالتالي تتجلى القيمة التبادلية ومن ثم الإستعمالية للعذرية بوضوح، حيث تقول "فرانسواز كوشار" في هذا الصدد: "أن الفتاة التي تحافظ على الرداء البكري Le voile hyménal، هي فتاة ثمينة، ذلك أن قيمتها التبادلية وبالتالي الإستعمالية مرتفعة مقارنة بالفتاة الغير عذراء، وبذلك تصبح للبكارة قيمة مثالية ورمزية تستثمرها الفتاة في رصيدها الخاص". (Couchard, 2005, p305)

إن القيمة الإستعمالية للعذرية تجعل منها شرطا أساسيا يمكن الفتاة من دخول مؤسسة الزواج. لأن الفتاة التي تحمل العذرية هي فتاة تمتلك الشرف، والذي يرتبط في مجتمعاتنا بنقاء الأنثى وخلو سيرتها من أي علاقة مشتبه فيها أو غير شرعية، وبالتالي قدرة الفتاة على صيانة عرضها وعرض والديها، أي أنها ذات نسب، وأنها متخلقة بقيم الحشمة والحياء والجدية، ومن ثم حظوتها بمقام محترم سواء داخل عائلتها أو مع الزوج وأسرته، ومنه المجتمع بأسره.

إن مكانة الأسرة المغربية تعتمد إلى حد كبير على شرفها (عرضها)، الذي يتحدد في الغالب من خلال احترام بناتها اللاتي يمكن أن ينزلن بها ضررا يتعدى إصلاحه عبر سوء استخدام نشاطهن الجنسي، فمسؤولية الحفاظ على الشرف مقدر على المرأة حملها بغض النظر عما إذا كانت تمتلك رصيда كافيا عن قضايا الجنس، إذ أن هذا النشاط الجنسي الخاص بالأنثى هو قضية اجتماعية شائكة من ناحية الأعراف الاجتماعية ذلك أن ربط الفتيات السلبي بالجنسانية تفاقم نظرا للأهمية المعززة للحفاظ على العذرية حتى الزواج. هذا لا يعني كبح وضبط نشاطها ومعرفتها الجنسية، إنما يتوجب علينا تطويرها بما يتلاءم مع ثقافتنا وقيمنا.

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

إن هذا النظام الأبوي البطيريركي الذي يعتمد عليه جعل الفرد الذكر ينمو في مجتمعاتنا قضيبيا، ينزع في شخصيته إلى حب البروز والسيطرة وامتلاك المرأة وإذلال من هم أضعف منه، حيث تتجسد هذه الشخصية القضيبية المصنوعة طبعاً من طرف المجتمع في أشكال ونسب مختلفة من السلطة يجد صاحبها الرجل لذته في إبراز أنه والدفاع عن سمعته.

تعتبر عذرية الفتاة قبل دخولها مؤسسة الزواج تمظهراً لها جس ذكوري محض، ذلك أن هذه العذرية كما أقر "بيير بورديو" تعتبر معياراً صناعياً للسمع الذكورية، وهذا ما يبرر التغطرس الذكوري للإخوة والآباء في الحفاظ على هذا المعيار.

إن وضع اللوم على الفتاة في حالة فقدانها العذرية وتحميلها مسؤولية هذا الحدث برغم أن الذكر يلعب دوراً جوهرياً في هذا فقدان، فمثل حالة الحمل، يتطلب الجنسين معاً، هو راجع إذن لمختلف الأنظمة الذكورية التي رسخت منذ أمد بعيد في ذهنية أفراد مجتمعاتنا رجالاً ونساء والتي نصت دوماً على إلقاء اللوم على جنس الأنثى، وبالتالي فإن اللاتكافؤ الجنسي يعد راسماً لحدود الممارسة الجنسية بالنسبة للفتاة.

إن الفتاة هي انعكاس للمضمون الثقافي السائد من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية تعمل كلها على تحديد المباحات والمحرمات في نطاق اجتماعي وليس ديني إلى حد ما، بالإضافة إلى إيديولوجيات المجتمع المحافظ الذي ينتج ميكانيزمات الضبط ضدها، حيث برغم السماح لها بالدراسة والخروج للعمل... إلخ، إلا أن مسألة العذرية وأهميتها تؤدي إلى انقلاب جد خطير، وهذا ما يفسر أن الرجل يعمل على الحفاظ على عذرية الفتيات المنتميات إلى عائلته لتحقيق نرجسيته الذكورية والتي تضمن له الانتماء لعالم الرجولة. وفي هذا الصدد تقول "فرانسواز كوشار": "أنه بالنسبة لكثير من الرجال فإن حماية بكارة النساء التي تعنيهم تعطي للفتاة قيمة كبيرة ومهمة تساهم في تحقيق النرجسية الذكورية خصوصاً في الثقافات الإسلامية". (Couchard, 2005, p300)

يمكن كذلك تفسير المسؤولية الممنوحة للفتاة في حالة فقدانها العذرية واعتبارها الملامة والمذنبة الوحيدة بالاعتماد على مقارنة النوع الاجتماعي أو بما يسمى بـ "المقاربة الجندرية"، والتي تعتبر كمرجعية أساسية في تفسير الهيمنة الذكورية الممارسة ضد الفتاة والتي عمل المجتمع على تأسيسها وترسيخها، وقياساً بمجتمعاتنا فإن مقارنة النوع الاجتماعي والتي حددتها الخلفيات التاريخية والثقافية والاجتماعية، جعلت من الفتاة إنتاجاً للمجتمع الذي عمل منذ أمد بعيد على توطين التراتبية عن طريق

الأستاذة ابتسام غانم

التصنيف المجتمعي الذي اعتمد عليه والذي هدف إلى إثبات أنثوية الفتاة مع ارتباطه بالتكوين الاجتماعي- الثقافي من عادات وتقاليد وأعراف حددت للفتاة مختلف الأدوار والممارسات والحدود التي يتوجب عليها احترامها وإتباعها، والتي يكمن أهمها في مجتمعنا في الحفاظ على العذرية وحمايتها لضمان إثبات الأنثوية في سياق مجتمعي مقبول و مثاب عليه.

إن عذرية الفتاة تعد بمثابة وسيط تتأسس به الأنثوية وبالتالي فإن عذرية المرأة تضمن لها "الهوية الأنثوية" التي تحقق لها المكانة المرموقة داخل الجماعة التي تنتمي إليها من عائلتها وزوجها وعائلة الزوج ومنه المجتمع، خصوصا أنها لا تستطيع إلا أن تسلك كما هو متوقع منها أنثى وإن ولدت إنسانا فإن مجتمعاتنا والتنشئة الاجتماعية التي تتبناها العائلات المغربية ستعلمها كيف ستصبح أنثى وبالتالي تصبح أدوارها وتصرفاتها مقيدة بما رسخه المجتمع وعائلتها فيها، ولذلك فيمكن اعتبار المرأة كبناء اجتماعي للمجتمع الذي تعيش فيه، فمجتمعنا يعمل على غرس أفكار الجنسانية المحددة جنديا في أذهان الأفراد ليشبوا عليها ويمارسونها فيما بعد، وهذا ما تقره "المقاربة الاجتماعية" حيث ترى أن المرأة والرجل يستبطنان سلوكياتهما نتيجة المجتمع الذي يعيشان فيه وذلك عن طريق عملية "التنشئة الاجتماعية" وهذا الاستبطان هو غير واعي، ولذلك فيمكن اعتبار العذرية كأحد مرتكزات بناء الهوية الذكورية.

إن لعذرية الفتاة قبل الزواج في مجتمعاتنا أهمية دلالية، ولذلك فإن فقدانها قبل الدخول في مؤسسة الزواج ينتج عنه وصم الفتاة بأبغض النوعات والألقاب، وبالتالي فالملامح أنه رغم اتساع دائرة الأخلاق الاجتماعية إلا أن نطاقها يضيق في المجتمعات الذكورية ليحاصر المرأة فقط، حيث نرى أن هذه الأخلاق الاجتماعية وكل التوجيهات والنواهي تصب في اتجاه قولبة المرأة وتكييف سلوكها وممارساتها حسب الإيديولوجيات التي يتبناها أفراد مجتمعنا، ولذلك يتوجب عليها أن تكون امرأة متحصنة وعفيفة وذلك بابتعادها عن مختلف الاتهامات والتهديدات.

إن إلحاق الضرر بالأنثى فاقدة العذرية سواء كان ضررا ماديا بالاعتماد على أساليب الجزاء السلبي سواء كانت مادية كسوء المعاملة الجسدية أو معنوية كالوصم، هو ناتج إذن عن قانون العرض الذي يتبناه العرف الاجتماعي والمشرعن والمتأصل في أعماق وعي شرائح مجتمعاتنا.

تقييم وتوصيات:

مسألة البكارة الأنثوية داخل المجتمعات المغاربية المتحولة

تحظى العذرية بأهمية بالغة في المجتمعات المغاربية، فرغم المرحلة الانتقالية التي عرفتتها هذه المجتمعات إلا أن هذه المرحلة اتسمت في عمومها بنوع من الاستقرار ومواكبة التغيرات بما يتلاءم مع شخصيتها وكيانها، ورغم احتوائها على عوامل ناتجة عن مختلف التأثيرات والتطورات العلمية والتكنولوجية، كالتثاقف الذي يعبر عن مختلف الثقافات المتضادة في إيديولوجياتها وقيمها خصوصاً تلك المعتمدة على الفكر الليبرالي الذي يعتمد على استهلاك السلع العقيمة والتي تتمثل في نساء لا تتمتع بعذريتهن، بالإضافة إلى التطور الطبي خاصة في مجال جراحة العذرية ومنه تأهيل الفتاة للدخول في مؤسسة الزواج وبالتالي تجاوز معضلة فقدان العذرية وما تنتجه من مخلفات سواء على الفتاة أو على أسرتها، لكن هذه التأثيرات تعد بمثابة تأثيرات شكلية في عمومها وليست جوهرية.

فالمضمون الثقافي لمجتمعاتنا يتسم إلى حد كبير بقيم وبنجاعة الأعراف الاجتماعية من قيم وإيديولوجيات مرتبطة بالمجتمعات العربية التقليدية.

إن الفعل الجنسي يعتبر مسؤولية المرأة وحدها، لكن فض غشاء البكارة، مثله مثل الحمل، فعل يتطلب عنصرين اثنين: رجل وامرأة، وذلك على عكس ما يظن أحياناً، حيث تحمل المبادئ الاجتماعية الأخلاقية في مجتمعاتنا البطريركية مسؤولية فض غشاء البكارة للفتاة، في حين يتملص الرجل من كامل مسؤوليته، وهذا ما يمكن أن يبرر انحراف أفكار الفتيات العربية نحو التطور الطبي والاعتماد على تقنياته خصوصاً جراحة العذرية التي تعد نموذجاً نمطياً لـ "التحديث" حيث وضعت أبرع الوسائل في خدمة القواعد الأساسية الملحة للعائلة البطريركية ذلك من أجل تجنب الرجال الصدمات، والحفاظ على أوهامهم المضللة، وتفادي مجابهتهم بالحقيقة التي يجدونها مقلقة ومرة وجارحة، والأهم في ذلك هو الابتعاد عن تحمل المسؤولية، وبالتالي يتوجب عليهم الحفاظ على مظاهر العذرية البطريركية والبراءة البطريركية.

إن حرص الفتاة على حماية عذريتها هو راجع إذا لقانون العرف الاجتماعي أو ما يسمى بقانون العرض والشرف، ذلك أن عذرية الفتاة هي مصدر قوة لها ولعائلتها ولأسرة عريسها، إذ بمحافظتها عليها لحين استعمالها في الزواج تقي نفسها كل الجزاءات السلبية التي يهيئها ويفرضها عليها أفراد مجتمعها، وبالتالي تؤدي الفتاة دورها في سياق اجتماعي مقبول ومثاب عليه بجزاءات إيجابية تعمل كلها على إثابة السلوكيات المقبولة للفتيات.

الأستاذة إيتسام غانم

فثقافتنا العربية تحرس ذاتها وتحصنها ضد الانتهاكات المحتملة من خلال تصميم وابتكار عقوبات رادعة يمكن أن تتعدى إلى القتل أو ما يسمى بـ "جرائم الشرف" التي تمارس في بعض البلدان العربية، قصدا منها الحيلولة دون حدوث هذه المعضلات التي تسعى للتمرد على قيمنا ومبادئنا، خصوصا أنه في الثقافات العربية أن تكون رجلا يعني الانخراط في ممارسات يومية أهمها ضمان عذرية نساء أسرتك.

خاتمة:

من خلال هذا الاستعراض يتبين لنا أن العذرية هي ظاهرة اجتماعية تنظمها العادة والعرف والتقليد، وهي ظاهرة مشرعة وضعتها قانون العرف الاجتماعي، ورغم التحديث الذي عرفته حياة المرأة في مجتمعاتنا العربية إلا أنه لم يقلص من الطبيعة الدلالية للعذرية المحملة بشحنة رمزية قوية، ذلك أن الفتاة التي تحافظ على عذريتها إلى حين دخولها مؤسسة الزواج تتوج على عرش المرأة والنسب العريق، إنها المرأة النموذجية التي تكتسب في الأخير سوى قيمة رمزية ضاربة بجذورها في أعماق الذهنية العربية التقليدية والتي تعبر عن انغماس كلي في الضمير الجمعي وذوبان الشخصية فيه.

- إيلكاركان، ب (2004). المرأة والجنسانية في المجتمعات الإسلامية. ترجمة: الإمام، م. بيروت: دار المدى للثقافة والنشر.
- بورديو، ب (2001). السيطرة الذكورية. ترجمة: حسان، أ. القاهرة: دار العالم الثالث.
- بوتفنوشت، م (1984). العائلة الجزائرية (التطور والخصائص الحديثة). ترجمة: دمري، أ. بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بن سلامة، ر.ت/إ (2005). التذكير والتأنيث (الجندر). ترجمة: أبو زيد، أ. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- الحفني، ع-م (1992). الموسوعة النفسية الجنسية. ط1، القاهرة: مكتبة مذبولي.
- الحيدري، إ (2003). النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب. ط1، بيروت: دار الساق.
- نعمان جسوس، س (2003). بلا حشومة. ترجمة: حزل، ع-ر. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- رمسيس، ف-ن (1992). حياة المرأة وصحتها، دار الجيل/سينا للنشر، القاهرة/بيروت.
- السعداوي، ن (1982أ). المرأة والصراع النفسي. ط2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- السعداوي، ن (1982ب). المرأة والجنس. ط5، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الشربيني، ل (2001). موسوعة شرح المصطلحات النفسية (انجليزي-عربي). بيروت: دار النهضة العربية.

الصواف، م والجبلي، ق (2001). الصحة النفسية للمرأة العربية. ط1، القاهرة: مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع.

المرنيسي، ف (دس ن). العابرة المكسورة الجناح (شهرزاد ترحل إلى الغرب). ت: أزرويل، ف-ز. بيروت: المركز الثقافي العربي.

Ben Dridi, I (2004). Le Tasfih en Tunisie un rituel de protection de la virginité féminine. Préface de Michèle Cros. Paris : L'Harmattan.

Benslama, f (2002). La psychanalyse a l'épreuve de l'Islam. Paris : Aubier.

Couchard, F (2004). Le fantasme de séduction dans la culture Musulmane (Mythes et représentations sociales). 2ème ed. Paris: Presses Universitaires de France.

Toualbi, R (1984). Les attitudes et les représentations du mariage chez la jeune fille Algérienne. Alger : Entreprise Nationale du livre.